الفصل الثالث

العلم والفقــه والحكمــة .. فى لســان القرآن

- شـمول العلم وتنوعه فى لسان القرآن .
- العلم عند سَلَف الأُمة .
- أول ما ينبغى أن يُعلم .
- العلم الذى لا يُطلب .
- الفقه فى لسان القرآن .
- الحكمة فى لسان القرآن .

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

العلم والفقه والحكمة .. فى لسان القرآن

● شمول العلم وتنوعه فى لسان القرآن :

والعلم الذى نوَّه به القرآن ، وحفلت به آياته ، يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء ، وتزول به غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان ، سواء أكان موضوعه الكون والطبيعة ، أم موضوعه الإنسان ، أم موضوعه الوجود والغيب ، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة ، أم وسيلته العقل والبرهان ، أم وسيلته الوحى والنبوة .

فليس صحيحاً ما شاع عند الغربيين ومَن دار فى فَلَكهم : أن العلم مقصور على ما قام على الملاحظة والتجربة ، وليس صحيحاً أيضاً ما يتصوره بعض المسلمين المتدينين أو يُصوِّرونه ، بأن « العلم » فى القرآن يعنى « العلم الدينى » ولا شىء غيره ، وحاول بعض أهل العلم الدفاع عن هذه الدعوى !

ومما يدل على بطلان ذلك التصور : استخدام لفظة : « العلم » ومشتقاتها فى غير العلم الدينى ، كما تدل على ذلك آيات القرآن .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالعلم الذى وصف الله به هؤلاء القوم الذين فصَّل لهم الآيات ، والذى جاء ذكره بعد قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا . . . ﴾ لا يمكن إلا أن يكون هو العلم الكونى ، الذى يدخل فيه علم الفلك وما يتعلق به .

---

(١) الأنعام : ٩٧

OBEIKAN.COM

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (١) .

فالعلم المراد هنا : هو الذى به يتعرف على آيات الله فى الكون ، علويه وسفليه ، وفى سر اختلاف الألسنة والألوان ، فهو يشمل علوم الكون ، وعلوم الإنسان .

واختلاف الألسنة والألوان قد يراد به : اختلاف الأُمم والشعوب فى لغاتها وألوانها بعضها عن بعض ، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

وقد يراد به اختلاف الأفراد فى أصواتهم حتى إن لكل فرد منهم تميّزا فى صوته يجعل له « بصمة » خاصة به لا يشاركه فيها غيره . ومثله الاختلاف فى الصورة فكل واحد له صورته المستقلة المتميزة ، مهما يكن شبهه بغيره .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢) .

وفى القرآن بضعة وأربعون مثلاً . وكان بعض السَّلَف يبكى على نفسه إذا مرَّ بمثل من القرآن ولم يفهم مغزاه ، ويقول : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ فأنا لست من العالمين ! فالعالمون هنا هم الذين يعقلون الحكمة من وراء ضرب الأمثال للناس ، فهم الذين يغوصون فى الأعماق ، ولا يقفون عند السطوح .

ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

---

(١) الروم : ٢٢ (٢) العنكبوت : ٤٣ (٣) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

OBEIKAN.COM

فالعلماء هنا - كما يبدو من السياق - ليسوا هم علماء الدين ، وفقهاء الشريعة ، على فضلهم ومكانتهم . وإنما هم الذين يعرفون آيات الله ، ويكتشفون سُنَّته فى خلقه ، فيما ذكر من السماء ، والنبات ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والأنعام ، أى الذين يعرفون عظمة الله من خلال معرفتهم بالسماء وعلم الفلك ، ومن خلال معرفتهم بالجبال وعلم الأرض (الچيولوچيا) ، ومن خلال معرفتهم بعلوم الإنسان ، وعلوم الحياة من نبات وحيوان ، ومن خلال هذه المعرفة الحقيقية يخشون الله ، إذ لا يخشى اللهَ ويخاف مقامه حقاً إلا مَن عرفه سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فتفصيل الآيات هنا إنما ينتفع به الذين يعلمون أسرار الله فى هذه الظواهر الكونية ، من جعل الشمس ضياءً فيها النور والحرارة ، والقمر نوراً لأنه يستمد نوره من الشمس ، ومن تقدير القمر منازل لمعرفة عدد السنين والحساب .

وقال تعالى فى قصة الرهط التسعة من ثمود : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فالذين يعلمون هنا هم : الذين يعرفون سنن الله تبارك وتعالى فى التعامل مع المكذِّبين والظالمين ، وأن مكره تعالى أعظم من مكرهم ، وكيده أقوى من

---

(١) يونس : ٥ (٢) النمل : ٥٠ - ٥٢

OBEIKAN.COM

كيدهم ، وأنه يمهل ولا يهمل ، وأنه يأخذهم وهم لا يشعرون . وما ربك بغافل عما يعملون .

وفى كثير من الآيات يأتى العلم فيها بمعنى المعرفة الواعية ، والإدراك الراشد للأُمور ، فهو ضد الجهل والغباء بصفة عامة ، لا بمعنى تحصيل علم معيَّن من علوم الدين أو الدنيا ، وهذا فى الحقيقة أكثر ما جاء فى القرآن بصيغة « يعلمون » أو « تعلمون » مثبتة أو منفية .

خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالذين يعلمون تفصيل الآيات هنا : هم أُولو المعرفة الراشدة ، الذين يميزون بين ما يُعلم بطريق الحس ، وما يُعلم بطريق العقل ، وما يُعلم بطريق الشرع ، فيأخذون كل علم من طريقه المخصوص به ، وهم هنا يعلمون أن ما حرَّمه الله على عباده لا يُعرف إلا من طريق الوحى ، فلا يفترون على الله الكذب ويقولون : هذا حلال وهذا حرام ، بغير برهان من الله .

وقد جاءت هذه الآية فى سياق نعى القرآن على أهل الجاهلية دعاواهم على الله بغير الحق أنه أمر بكذا أو حرَّم كذا من غير سلطان أتاهم ، فقبل ذلك بآيات قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الأنعام مناقشة تفصيلية للذين حرَّموا أنواعاً من الأنعام بغير برهان من الله ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) الأعراف : ٢٨

OBEIKAN.COM

أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ومثل ذلك قوله تعالى بعد ذكر بعض أحكام الأسرة : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فالمراد هنا : أنهم يعلمون بما لديهم من فقه ورشد : أن الله لا يشرع إلا ما فيه الخير والصلاح لهم . فهم أهل علم ووعى لا أهل جهل وبلادة .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فليس المراد هنا : أنهم يعلمون علماً معيَّناً من علوم النقل أو العقل ، بل المراد أنهم ليسوا من أهل الجهل والغباء .

وهذا ما نجده أيضاً فى حالات نفى العلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فليس المقصود نفى علم معيَّن عنهم من علوم الشرع أو الكون ، بل المقصود نفى العلم من حيث هو ، أى أنهم ليس بأهل علم ومعرفة .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

ومثله فى سورة أخرى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٤ (٢) البقرة : ٢٣٠ (٣) الأنعام : ١٠٥
(٤) التوبة : ٦ (٥) التوبة : ٩٣ (٦) الروم : ٥٩

OBEIKAN.COM

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالناظر فى هذه الآيات وما شابهها يتبين أنها لا تنفى علماً معيَّناً من علوم الدين أو الدنيا ، إنما تنفى العلم من حيث هو ، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم الذين يُقام لهم وزن أو يُحسب لهم حساب ، بل هم من أهل الجهل الذين لا يعلمون . وكفى بالجهل وصمة وعارا .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فقد يكون المراد نفى العلم عنهم ودمغهم بالجهل المطلق ، أو نفى العلم بهذه القضية المتحدَّث عنها ، فهم لا يعلمون أن العزَّة لله جميعاً ، لأنه خالق الخلق ، ومالك المُلك ، وصاحب الأمر ، ومَن بيده ملكوت كل شىء وهو يُجير ولا يُجار عليه . وأن العزَّة لرسوله ، فهو الذى أرسله بالهدى ودين الحق ، فهو يتكلم باسم الله ، وينفذ أمر الله ، ويُبلِّغ رسالة الله ، ومعه المؤمنون ، فعزَّتهم من عزَّة الله ، وحبلهم موصول بحبله ، وقوَّتهم مستمَدة من قوَّته ، فلا يملك أحد أن يذل نفوسهم ، أو يحنى رؤوسهم ، وهم منسوبون إلى القَوِىّ العزيز .

* *

● أكثر الناس لا يعلمون :

ولقد حكم القرآن فى آيات كثيرة على أكثرية البَشر بأنهم ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، بمعنى : أنهم ينقصهم العلم الحقيقى بهذه القضايا المهمة التى يتحدث عنها . ونعنى بالعلم الحقيقى : الإدراك الواعى الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل ، وهو أمر مؤسف حقاً ، مع أن الله تعالى نصب الأدلة لعباده ، من الكون

---

(١) الجاثية : ١٨ (٢) المنافقون : ٨

المنظور ، ومن الوحى المسطور ، لكى يعلموا ويعرفوا ، فمالهم لا يعلمون ؟

وإنما قلنا : الإدراك الجازم ؛ لأن ما ليس بجازم لا يكون علماً ، بل ظناً ، إذا كان راجحاً ، ووهماً إذا كان مرجوحاً ، وشكاً إذا استوى الطرفان ، ولهذا قابل القرآن بين العلم والظن فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (١) .

ووصفنا الإدراك الجازم بـ « المطابق للواقع » ؛ لأن غير المطابق لا يكون علماً ، بل هو جهل وغباء .

وقيَّدناه بـ « الناشىء عن دليل » ؛ لأن ما ليس كذلك ليس علماً ، بل هو تقليد ، بمعنى اعتماد قول الغير بلا حُجَّة ، وقد أجمعوا على أن التقليد ليس بعلم .

ولو أردنا أن نتتبع هذه الصيغة فى القرآن : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أو ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أو ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ونحوها . . . لاتسع بنا المجال ، وطال بنا المقال .

ولكن لا بأس أن نعرض لمجموعة منها تدل على غيرها ، ومعظمها يتعلق بجانب الإلهيات .

ففى سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وسواء أكان الضمير فى « أكثرهم » يرجع إلى الناس عامة أم إلى المشركين خاصة ، فإن المشركين هم أكثر الناس ، وهم لا يدركون ولا يعون قدرة الله تعالى المطلقة على تنزيل الآيات الكونية الخارقة متى شاء ، وكيف شاء ، كما

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) الأنعام : ٣٧

OBEIKAN.COM

لا يدركون حكمته فى عدم تنزيلها على محمد ﷺ ، والاكتفاء بالقرآن آية عظمى له : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وفى سورة الأعراف نقرأ : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ولا زال إلى اليوم أكثر الناس يجهلون أن علم الساعة عند الله وحده ، وأن موعد قيامها مغيب عنهم ، ولا يبرح يخرج واحد من الغرب أو الشرق ، يزعم أن الساعة ستقوم فى يوم كذا ، ويجد فى الناس مَن يُصدِّقونه ويفزعون كلما اقترب ذلك اليوم .

بل وجدنا مسلماً مرق من الإسلام ، يحدد موعد قيام الساعة ، بناء على قراءة خاصة متميزة للحروف المقطعة فى أوائل السور !

ونقرأ فى سورة الأنفال قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وسواء أكان الضمير فى قوله : « أولياءه » لله تعالى أم للمسجد الحرام ، فهؤلاء المشركون قد أخرجهم الشرك عن الولاية لله تعالى ولبيته ، فهم أبعد الناس عن ذلك ، إنما أولياؤه حقاً هم المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، ويحسبون أن الولاية بمجرد الدعوى والتظاهر الكاذب .

---

(١) العنكبوت : ٥١ (٢) الأعراف : ١٨٧ (٣) الأنفال : ٣٤

OBEIKAN.COM

ونقرأ فى سورة يونس : ﴿ أَلَا إِنَّ لله مَا فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . فهم يجهلون أن الله تعالى إذا وعد لا بد أن يُنجز وعده ، لأن الذى يُخلف وعده إما لعجزه ، والله لا يعجزه شىء ، وإما لكذبه ، والله يتعالى عن الكذب ، فلا أصدق من الله قيلا .

ومثل هذا ما جاء فى أوائل سورة الروم من قوله : ﴿ وَعْدَ الله ، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد تكرر هذا المعنى فى سورة النحل (الآية : ٣٨) ، وفى سورة القصص (الآية : ١٣) .

ونقرأ فى سورة يوسف قوله تعالى فى شأن يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، والضمير فى قوله : « على أمره » هل يعود إلى يوسف أو يعود إلى الله ؟ أيّاً كان فالله هو الغالب الذى لا يُغلب ، والذى لا ينفذ إلا ما أراده ، وإن جهل ذلك الأكثرون الذين يظنون أنهم هم الذين يسيرون حركة الفلك ، أو أنهم الذين يرفعون ويخفضون ، وما لهم من الأمر من شىء ، قل إن الأمر كله لله !

وفى السورة نفسها نقرأ قول يوسف للنزلاء معه فى السجن من عُبَّاد الأوثان : ﴿ يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٥٥
(٢) الروم : ٦
(٣) يوسف : ٢١
(٤) يوسف : ٣٩ ، ٤٠

OBEIKAN.COM

فهذه هى الحقيقة الكبرى التى ضلَّ أكثر الخلق عنها ، رغم وضوحها فى نفسها ، وهى حقيقة التوحيد : توحيد الربوبية ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد العبادة ، فلا يتخذ غير الله رباً ، ولا يبتغى غير الله حَكَماً ، ولا يعبد غير الله إلهاً ، وهذا هو الدين القيم حقاً ، دين الفطرة ، ولكن ضلَّ عنه أكثر الناس لأسباب وموانع شتَّى .

ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الروم ، بعد أن عرض لوحة رائعة من آيات الله تعالى فى الآفاق والأنفس : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة سبأ نجد حقيقتين مهمتين جهلهما أكثر الناس :

الأولى : عموم الرسالة المحمدية لكل البَشر ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

والأخرى : مسألة الرزق ، بسطاً وقبضاً ، وسعة وضيقاً ، وأنها بيد الله سبحانه وإن كان لها أسبابها ، منها ما هو معروف ، وما هو مجهول ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وفى سورة الزمر نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الروم : ٣٠
(٢) سبأ : ٢٨
(٣) سبأ : ٣٦
(٤) الزمر : ٤٩

فهذه الآية تدل على طبيعة الإنسان الذى يلجأ إلى الله ، يدعوه ويتضرع إليه عند نزول الضر والشدة به ، ثم سرعان ما ينسى ربه ، ولا يذكر إلا نفسه ، عندما تنكشف الغمة ، وتحل النعمة ، فهو لا يعترف بفضل ربه ، بل بقدرة ذاته ، ويقول ما قال قارون من قبل : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ ! (١) .

إنها فتنة حقاً ، واختبار صعب للإنسان ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة هذا الاختبار ولا أهميته ، ولذلك يرسبون فيه ويسقطون !

وفى سورة غافر نقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وذلك لأن الناس - كما يقول البقاعى - شُعْبة يسيرة من خلقهما . فعُلِمَ أن الذى قدر على ابتدائه (أى الكون) على عظمه ، قادر على إعادة الناس على حقارتهم ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الذين ينكرون البعث وغيره ، أى لا علم لهم أصلاً ، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم ، واتباعهم أهواءهم ، فهم لا يستدلون بذلك على القدرة على البعث ، كما أن البهائم ترى الظاهر فلا تدرك به الباطن ، بل هم أنزل رتبة من البهائم ؛ لأن هذا النحو من العلم فى غاية الظهور ، فهو كالمحسوس ، فمَن توقف فيه كان جماداً ! (٣) .

وفى سورة الدخان نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

بيَّن الله فى هاتين الآيتين : أنه لم يخلق هذا الكون - علويه وسفليه - باطلاً ولا لعباً ولا عبثاً ، كما يظن الذين كفروا أن هذا الكون بُنِىَ وسينهدم لغير حكمة ولا هدف ، فإنما هى أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، ولا شىء وراء ذلك ، وهذا ما ردَّه القرآن واعتبره باطلاً ولعباً : أن تُطوَى صفحة هذا الوجود ، وقد استوى المؤمنون والكفار ، والمتقون والفجار ، يقول تعالى :

---

(١) القصص : ٧٨ (٢) غافر : ٥٧
(٣) نظم الدرر : ١٧/ ٩٤ (٤) الدخان : ٣٨ ، ٣٩

OBEIKAN.COM

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) .

فاللَّعب والعبث أن تنتهى الحياة ولا تُجزَى كل نفس بما كسبت : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق ، ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، لأنهم يعيشون فى يومهم ، غافلين عن غدهم ، غارقون فى دنياهم ، عمين عن آخرتهم .

بهذا التتبع النسبى لكلمة « ع ل م » ومشتقاتها فى القرآن ، مثبتة ومنفية ، تبيَّنا مدى شمول العلم وتنوعه فى كتاب الله ، بحيث يشمل علم الدين وعلم الدنيا وكل معرفة واعية ، وذلك بحسب السياحة ، كما بيَّناه بوضوح ، والحمد لله .

* * *

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨ (٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦

OBEIKAN.COM

العلم عند سَلَف الأُمة

والعلم عند سَلَف الأُمة يشمل علوم الشرع ، وعلوم العقل ، وعلوم اللِّسان ، أو قل : هو يشمل علم الدين وعلم الدنيا .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رضى الله عنه فى كتابه الشهير « جامع بيان العلم » : « حدُّ العلم عند العلماء والمتكلمين فى هذا المعنى هو ما استيقنته وتبينته ، وكلُّ مَن استيقن شيئاً وتبيَّنه فقد علمه ، وعلى هذا مَن لم يستيقن الشىء وقال به تقليداً فلم يعلمه .

والتقليد عند العلماء غير الاتِّباع ؛ لأن الاتِّباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه .

والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرف وجه القول ولا معناه ، وتأبى مَن سواه . . أو أن يتبيَّن لك خطؤه ، فتتبعه مهابة خلافه ، وأنت قد بان لك فساد قوله ، وهذا محرَّمٌ القول به فى دين الله سبحانه وتعالى .

والعلم عند غير أهل اللِّسان العربى - فيما ذكروا - يجوز أن يترجم باللِّسان العربى علماً ، ويترجم معرفةً ، ويترجم فهماً .

والعلوم تنقسم قسمين : ضرورى ، ومكتسب .

فحدّ الضرورى : ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه ، ولا يدخل فيه على نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل ، كالعلم باستحالة كون الشىء متحركاً ساكناً ، أو قائماً قاعداً ، أو مريضاً صحيحاً فى حالٍ واحدةٍ .

ومن الضرورى أيضاً وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ، كذوق الشىء يعلم به المرارة من الحلاوة ضرورةً ، إذا سلمت الجارحة من آفة ، وكرؤية الشىء يعلم بها الألوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات .

OBEIKAN.COM

ومن الضرورى أيضاً عِلْم الناس أن فى الدنيا مكة والهند ومصر والصين وبلداناً قد عرفوها ، وأُمماً قد خلت .

وأما العلم المكتسَب : فهو ما كان طريقةُ الاستدلال والنظر ، ومنه الخفى والجلى ، فما قرب منه من العلوم الضرورية كان أجلى ، وما بَعُد منها كان أخفى .

والمعلومات على ضربين : شاهد ، وغائب .

فالشاهد ما عُلِم ضرورة ، والغائب ما عُلِم بدلالة من الشاهد .

والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أسفل ، وعلم أوسط .

فالعلم الأسفل هو : تدريب الجوارح فى الأعمال والطاعات ، كالفروسية والسياحة والخياطة . . . وما أشبه ذلك من الأعمال التى هى أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتى عليها وصف .

والعلم الأعلى عندهم علم الدِّين الذى لا يجوز لأحدٍ الكلام فيه بغير ما أنزل الله فى كُتُبه وعلى أَلْسِنة أنبيائه - صلوات الله عليهم أجمعين - نصاً ومعنى ، ونحن على يقين مما جاء نبياً ﷺ عن ربِّه عَزَّ وجَلَّ ، وسَنَّهُ لأُمته من حكمته ، فالذى جاء به هو القرآن هدىً للناس وبيِّنَاتٍ من الهدى والفرقان ، شفاءً ورحمةً للمؤمنين ، آتاه الله الحكم والنبوة ؛ فكان ذلك يُتلى فى بيوته . قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (١) .

يريد : القرآن والسُّنَّة ، ولسنا على يقين مما يدَّعيه اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل ؛ لأن الله قد أخبرنا فى كتابه عنهم أنهم يكتبون الكتاب

---

(١) الأحزاب : ٣٤

بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . فكيف يؤمَن مَن خان الله ، وكذب عليه وجحد واستكبر ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (١) . وقد اكتفينا والحمد لله بما أنزل الله على نبينا ﷺ من القرآن ، وما سَنَّه لنا عليه السلام .

قال أبو عمر : من الواجب على مَن لا يعرف اللِّسان الذى نزل به القرآن ؛ وهى لغة النبى ﷺ أن يأخذ من علم ذلك ما يكتفى به ، ولا يستغنى عنه حتى يعرف تصاريف القول وفحواه ، وظاهره ومعناه ، وذلك قريب على مَن أحبَّ علمه وتعلَّمه ، وهو عونٌ له على علم الدِّين الذى هو أرفع العلوم وأعلاها . به يُطاع الله ويُعبد ، ويُشكر ويُحمد ؛ فمَن عَلِم من القرآن ما به الحاجة إليه ، وعرف من السُّنَّة ما يُعوَّل عليه ، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربِّهم وسُنَّة نبيهم ، حصل على علم الديانة ، وكان على أُمة نبيه مؤتمناً حق الأمانة ، إذا اتقى الله فيما علمه ، ولم تملْ به دنيا شهوته ، أو هوىً يُرديه ، فهذا عندنا العلم الأعلى الذى نحظى به فى الآخرة والأولى .

والعلم الأوسط هو : معرفة علوم الدنيا التى يكون معرفة الشىء منها بمعرفة نظيره ، ويُستَدل عليه بجنسه ونوعه ، كعلم الطب والهندسة » (٢) .

ومن هنا ذهب الإمام أبو حامد الغزالى ، وغيره من علماء الأُمة ، إلى أن كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، فإنَّ تعلمه واتقانه فرض كفاية على الأُمة ، مثل الطب والهندسة وغيرهما .

فإذا قام فى الأُمة عدد كاف يلبى مطالبها ، ويسد حاجتها ، ويغنيها أن

---

(١) العنكبوت : ٥١ (٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .

OBEIKAN.COM

تكون كَلاًّ على غيرها فى النواحى المدنية والعسكرية ، فقد سقط الإثم والحَرَج عن سائر الأُمة ، وإن لم يقم هذا العدد الكافى فى كل اختصاص تحتاج إليه ، فالأُمة كلها آثمة ، لتضييعها هذه الفريضة الجَماعية ، الواجبة عليها بالتضامن ، على تفاوت فى مستوى المسؤولية ، فمسؤلية الجاهل ليست كمسؤلية العالِم ، ومسؤلية ذوى الشأن وأُولى الأمر ، ليست كمسؤلية غيرهم من المغمورين .

بل ذهب الغزالى وغيره إلى أن تعلم أُصول الصناعات المختلفة فرض على الأُمة ، من الحدادة والنجارة والنسيج والخياطة . . . وغيرها من كل ما لا يستغنى عنه المجتمع المدنى .

وفى عصرنا تدخل كل الصناعات « التكنولوچية » التى طورت بها الحضارة المعاصرة الحياة تطويراً هائلاً ، فطوى الإنسان المكان ، واختصر الزمان ، ووفر جهد الإنسان ، وغدونا نتحدث عن ثورة « التكنولوچيا » وثورة « البيولوچيا » وثورة « الاتصالات » ، وثورة « المعلومات » ، وغيرها من الثورات التى غيَّرت وجه الحياة ، ويجب على أُمة الإسلام أن يكون لها دورها فى هذه الثورات ، وألا تقف متفرجة والعالَم يعمل ويتحرك ، ودينها يوجب عليها أن تكون فى مقدمة القافلة لا فى ذيلها .

وقد أشار القرآن إلى صناعات شَتَّى ، مثل صناعة الحديد فى الجانب العسكرى ، والجانب المدنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية ، وقد علَّم الله نبيه داود صناعة الدروع : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ (٣) ،

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) الأنبياء : ٨٠ (٣) سبأ : ١٠ ، ١١

ومثل ذلك : الصناعات الغذائية كما فى قوله : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ (١) .

ومنها : الصناعات المتخذة من الأنعام : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

ومنها : صناعات التجميل والزينة : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْه فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ (٣) ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (٤) .

ومنها : صناعة السفن ، وقد أجادها نوح عليه السلام : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلَيْه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٥) ، ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْه مَلأٌ مِّن قَوْمِه سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (٦) .

ومنها : صنعة البناء ، وقد تعلَّمها إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهما اللَّذان بنيا أول بيت وُضِعَ للناس : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (٧) .

ومنها : صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين : ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ ، حَتَّىٰ إذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْه قِطْراً ﴾ (٨) .

والقِطْر : هو النحاس المذاب ، وهو إذا أضيف إلى الحديد زاده صلابة وقوة .

---

(١) النحل : ٦٧ (٢) النحل : ٨٠ (٣) الرعد : ١٧
(٤) النحل : ١٤ (٥) المؤمنون : ٢٧ (٦) هود : ٣٨
(٧) البقرة : ١٢٧ (٨) الكهف : ٩٦

OBEIKAN.COM

ومنها : الصناعات التى عملها الجن لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٢) .

وعمل الجن لها لا يعنى أن بنى الإنسان لا يقدرون عليها ، ففى قصة سليمان رأينا بعض الناس ممن ﴿ عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٣) يقدر على ما لم يقدر عليه العفريت . . . .

إلى غير ذلك من الصناعات التى أشار إليها القرآن .

* * *

(١) سبأ : ١٣ (٢) سورة ص : ٣٧ (٣) النمل : ٤٠

OBEIKAN.COM

أول ما ينبغى أن يُعْلم

وإن الحقائق التى ينبغى للإنسان أن يعلمها كثيرة ، ولا تتناهى .

● **العلم بالله وصفاته مقدَّم على كل علم :**

ولكن أعظم الحقائق التى يحض القرآن على معرفتها والعلم بها ، هى : العلم بالله تبارك وتعالى ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا . فهذا أول ما ينبغى للإنسان أن يعلمه .

بل هذا ما خلق الله له هذا الكون بسمواته وأرضه ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم : أن الله سبحانه خلق هذا العالَم علويه وسفليه لكى نعرفه سبحانه ، فنعبده بعد ذلك .

يقول تعالى : ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (١) .

وقد ذكر الصوفية فى هذا حديثاً قدسياً لم يثبت ، يقول : « كنتُ كنزاً خفياً ، فأحببت أن أُعرف ، فخلقتُ الخلق ليعرفونى » ! (٢) .

ولا حاجة إلى هذا الحديث ، فالآية التى ذكرناها تغنى عنه ، وهى صريحة الدلالة على غاية الخلق ، وهى معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وخصوصاً الاسمين الكريمين : القدير والعليم .

---

(١) الطلاق : ١٢

(٢) قال ابن تيمية : ليس من كلام النبى ﷺ ، ولا يُعرف له سند صحيح ، ولا ضعيف ، وتبعه الزركشى وابن حجر والسخاوى وغيرهم ، ممن ألَّف فى الأحاديث المشتهرة ، انظر : « كشف الخفاء » : ٢/١٢٢

OBEIKAN.COM

وهذه الآية الكريمة استدل بها العلماء على فضيلة علم التوحيد ، وتقدمه على سائر العلوم ، وهذا صحيح ، ولكن علم التوحيد الحقيقى ليس هو علم الكلام الجدلى ، الذى امتلأ بمباحث ومجادلات هى أبعد ما تكون عن لُّب التوحيد ، وعن تكوين جوهر الإيمان ، وحقيقة اليقين ، وذلك لأنه امتزج بفلسفة اليونان ، وابتعد عن نهج القرآن ، الذى يخاطب العقل والعاطفة جميعاً ، ويعتمد على آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، وقد ألَّف الإمام ابن الوزير كتاباً قيماً سمَّاه « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » .

وكذلك بيَّن القرآن أن الله جعل الكعبة المشرَّفة ، وشرع الأشهر الحُرُم ، وشرع الهَدْى والقلائد وما يتعلق بالمناسك ، لنعرف الله جَلَّ جلاله .

يقول تعالى : ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ومَن تتبع الآيات التى فيها الأمر بالعلم للفرد أو الجماعة : ﴿ اعْلَمْ ﴾ أو ﴿ اعْلَمُواْ » ، يتبين بوضوح : أن أول ما ينبغى أن يُعلم هو التوحيد وما يتعلق به من كمال الله تعالى وجلاله وجماله ، وكذلك لقاءه سبحانه ، وأننا إليه محشورون ، فلا ينبغى أن تلهينا عنه أموال ولا أولاد ولا الحياة الدنيا بما فيها من لَّعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

اقرأ هذه الآيات :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٢) .

﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) المائدة : ٩٧ (٢) محمد : ١٩ (٣) البقرة : ١٩٤

﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٧) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨) ، ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٩) .

﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٠) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١١) .

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٢) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) .

---

(١) البقرة : ١٩٦ (٢) البقرة : ٢٠٣ (٣) البقرة : ٢٠٩

(٤) البقرة : ٢٢٣ (٥) البقرة : ٢٣١ (٦) البقرة : ٢٣٣

(٧) البقرة : ٢٣٥ (٨) البقرة : ٢٤٤ (٩) البقرة : ٢٦٧

(١٠) المائدة : ٩٨ (١١) الأنفال : ٢٤ (١٢) الأنفال : ٢٥

(١٣) الأنفال : ٢٨

OBEIKAN.COM

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وهكذا نجد هذه الصيغة : ﴿ اعْلَمُواْ ﴾ تتعلق بكمال الأُلوهية ، وصفات جلالها وجمالها ، أو التذكير بالحشر وملاقاة الله سبحانه ، أو بيان مَعيَّة الله تعالى لعباده المتقين فى ثلاثة آيات منها ، وأنه مُخزى الكافرين .

* *

● **العلم بقيمة الحياة الدنيا :**

ويقرب من ذلك قوله : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٣) .

* *

● **العلم برسالة الرسول :**

وفى هذه الآيات - بهذه الصيغة - : آيتان تتعلقان بالرسالة والرسول : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) .

والثانية قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) الأنفال : ٤٠ (٢) التوبة : ٢ (٣) الحديد : ٢٠

(٤) المائدة : ٩٢ (٥) الحجرات : ٧

OBEIKAN.COM

● **العلم بالأحكام متأخر عن العلم بالعقائد :**

وهناك فى هذه المجموعة المكونة من سبعة وعشرين آية ، توجد آية واحدة تتعلق بالأحكام ، وذلك فى قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . . ﴾ (١) .

وهذا يدل على أن العقائد مقدَّمة على الأعمال ، وأن الأُصول مُقدَّمة على الفروع ، وأن أحكام الآخرة وما يتعلق بها مقدَّمة على أحكام الدنيا . على خلاف ما انتهى إليه حال المسلمين فى الأعصار الأخيرة ، فقد أخذت الأحكام الفرعية الجزئية الفقهية مساحة كبيرة من حياتهم العلمية والعملية ، وشغلهم الحديث عنها ، والخلاف فيها ، عن أهم القضايا الكلية ، وأخطر المسائل المصيرية .

* * *

(١) الأنفال : ٤١

OBEIKAN.COM

العلم الذى لا يُطلب

قصد القرآن إلى توفير الجهد العقلى للإنسان ، فلا يضيعه فيما لا قدرة له عليه ، ولا سبيل له إلى معرفته ، كما أنه لا فائدة له ولنوعه فى العلم به .

وبهذا يدخر الإنسان ما وهبه الله من طاقات ذهنية مكنونة ، وقدرات فطرية مخزونة ، ليصرفها فيما هو أجدى له ، وأعود عليه وعلى جنسه بالخير والبركة له فى دينه ودنياه .

ومن ثَمَّ كان هناك أنواع من العلم لا يطلبها المسلم ، وبعبارة أُخرى لم يُؤمر بطلبها ، بل ربما نُهِىَ عن طلبها والبحث عنها .

● **علم الغيب** :

وفى مقدمة هذه الأشياء التى دعا القرآن الإنسان ألا يسعى فى طلب معرفتها : العلم بالغيب ، أو كما عبَّر القرآن : علم الغيب ؛ أى ما غاب عن الحس ، فلم يُدرَك بأى حاسة من حواسه ، وغاب عن العقل ، فلم يُدرَك بأى أداة من أدواته .

والمراد بالغيب هنا : الغيب المطلق ، الذى لم يجعل الله له دلائل ترشد إليه ، أو علامات تدل عليه ، ويستوى كل الناس فى الجهل بها ، مثل العلم بما يكنه ضمير المستقبل للإنسان : هل يعيش الطفل حتى يكبر ؟ وإذا كبر هل يتزوج ؟ وإذا تزوج هل ينجب ؟ وإذا أنجب هل يكونون ذُكوراً أو إناثاً ؟ وهل يكونون أذكياء أم أغبياء ؟ سعداء أو أشقياء ؟ وكم يعيش هو ؟ ومتى يموت ؟ وأين يموت ؟ وعلى أى حال يموت ؟؟؟ إلى آخر تلك الأسئلة التى لا تكاد تتناهى .

هذه الأسئلة وما شابهها لا يستطيع الإنسان أن يعرف إجابتها على وجه القطع والتفصيل ، فهى من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

OBEIKAN.COM

حتى أنبياء الله ورُسُله لا يعلمون من هذا الغيب شيئاً إلا ما أعلمهم الله تعالى به ، لينبئوا به أقوامهم . قال الله تعالى لخاتم رسله محمد : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ (٣) .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا . . . . ﴾ الآية (٤) .

وقد أمر الله تعالى رسوله الخاتم أن يعلن أنه لا يدرى ماذا يحدث له ولا لقومه فى الغد : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٧) .

وهذا لا يعنى - كما قد يتوهم بعض الناس - أن يهمل الإنسان التفكير فى مستقبله ، والتخطيط له . فقد بيَّنا فى كتبنا الأُخرى أن النظرة المستقبلية من

---

(١) الأعراف : ١٨٨ (٢) الجن : ٢٦ ، ٢٧ (٣) النمل : ٦٥
(٤) الأنعام : ٥٩ (٥) الأحقاف : ٩ (٦) الأنبياء : ١٠٩
(٧) الأنبياء : ١١١

OBEIKAN.COM

صميم الإسلام ، وأن هذا ما أرشد إليه القرآن ، وما صنعه الرسول عليه الصلاة والسلام [١] .

« الغيب » - فى نظر القرآن - لا يعلمه الإنسان ، ولكنه يؤمن به ولا ينكره ، ومن أوصاف المتقين فى القرآن أنهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [٢] .

والماديون فى عصرنا وفى كل عصر ، يجعلون الإيمان بالغيب مساوياً للإيمان بالخرافة ! ومما لا شك فيه أن « الله » غيب ، والوحى غيب ، والآخرة غيب ، فكل الذين يؤمنون بالله وبرسالاته وبالجزاء الأخروى خرافيون ؛ لأن عقليتهم « عقلية غيبية » لا « عقلية علمية » !!

وهذا يكون صحيحاً لو طولب الإنسان أن يؤمن بما لم يقم عليه الدليل العقلى القاطع ، وجرى وراء الظنون والأوهام ، واتبع أهواء الكَهَنة والدجَّالين .

أما أن يقوم البرهان وتشهد آيات الله فى الأنفس والآفاق على وجود الخالق المبدع الحكيم ، وتقوم الأدلة الناصعة على أن فلاناً رسول من الله ينزل عليه الوحى ، ولا ينطق عن الهوى ، فهنا نخضع لمنطق العقل نفسه ، الذى دلَّ على صدق الرسول المبلِّغ عن ربه ، ويحكم العقل بعزل نفسه - كما يقول الإمام الغزالى - ليتلقى عن الوحى ، ويقول مع المؤمنين : سمعنا وأطعنا .

ثم يبقى للعقل مساحة رحبة يعمل فيها ، وذلك فيما لم ينص فيه الوحى ، وفى فهم ما نصَّ عليه ، وفى التوفيق بينه وبين العقل فيما ظاهره التعارض .

ولا يُكلَّف الإنسان فى نظر القرآن والإسلام أن يؤمن بما يستحيل ثبوته فى حكم العقل ، فهذا لا يُقبل فى منطق القرآن الذى يقول للمخالفين : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ [٣] ، إنما يُطالَب الإنسان بما هو ممكن فى نظر العقل الحر ،

---

(١) انظر : فصل « فكر مستقبلى » من كتابنا « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » ، وفصل « النظرة المستقبلية » من كتابنا « الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » .

(٢) البقرة : ٣ (٣) البقرة : ١١١ ، والأنبياء : ٢٤ ، والنمل : ٦٤

ولكن ليس لديه آلة لإدراكه ، فهو يؤمن به ، لأن الوحى المعصوم جاء به ، وإلا لناقض العقل نفسه ، حيث أثبت صدق الوحى ، ثم كذَّب ما أنبأ به .

والإنسان حين يؤمن بالغيب ولا يبحث عنه ، إنما يوفر طاقته العقلية للبحث فى « عالَم الشهادة » الذى يعيش فيه ، ويتعامل معه ، ولديه الوسائل لمعرفته ؛ لأنه كله مسخَّر لمنفعته من قِبَل خالقه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ (١) .

ومن هنا كان خطأ المدرسة المشائية فى الفلسفة الإسلامية ، المتمثلة فى الكندى والفارابى وابن سينا ومَن دار فى فلكهم : أنهم أخذوا الفلسفة اليونانية بكل شُعَبها وجوانبها - بما فيها الجانب الإلهى والغيبى - وجعلوها أصلاً مسلَّماً ، وجعلوا ما جاء به القرآن تابعاً . ومن هنا كان موقفهم من القضايا العقدية الكبرى التى كفَّرهم فيها الغزالى ، وهى : قضية الخلق ، أعنى خلق الله للعالَم بسمواته وأرضه . . وقضية علم الله تعالى لجزئيات الحوادث ، وقضية البعث الجسمانى فى الدار الآخرة ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، وجنَّة ونار .

ولو أن هؤلاء الفلاسفة الكبار أخذوا من فلسفة اليونان : الشُعَب المتعلقة بعلوم الطبيعة والرياضيات ونحوها . . . واكتفوا فى الجانب الإلهى بما نطق به القرآن ، لاستراحوا وأراحوا ، ووفروا على الأُمة الصراع بين المتكلمين والفقهاء من جانب ، والفلاسفة من جانب آخر ، ولانطلقت الأُمة بالجانب العلمى المحض ، واستمرت فى تطويره وتحسينه وتنقيحه والإضافة إليه ، وربما لو تم ذلك لبقيت قيادة الحضارة فى يد الشرق ، ولم تنتقل الشُعْلة منه إلى الغرب ، ولكن هكذا قدَّر الله ، ولا يجدى هنا « لو » ولا « ليت » !

* *

(١) الجاثية : ١٣

OBEIKAN.COM

● **العلم بحقيقة الذات الإلهية :**

وأعظم أنواع الغيب ، وأبعدها عن إدراك الإنسان وإحاطته : العلم بحقيقة الذات الإلهية المقدَّسة ، المتعالية على المخلوقات ، المتصفة بكل كمال ، المنزَّهة عن كل نقص .

دعا القرآن العقل إلى الاعتراف بقصوره الذاتى عن إدراك حقيقة ذات الله جلَّ شأنه . بحسبه أن يدرك وجوده تبارك وتعالى ، ويدرك وحدانيته ، ويدرك تفرده بالكمال الأعلى ، وروعة تدبيره لهذا الكون ، واتصافه بالعلم والحكمة ، والمشيئة والقدرة ، والعزَّة والرحمة ، ونحو ذلك من صفات الكمال اللائقة بذاته سبحانه .

أما ما عدا ذلك ، فالعقل الإنسانى أعجز من أن يحيط به ، ويدرك كُنْهه ، ولا عجب فى ذلك ، فقد ثبت عجز الإنسان عن « معرفة الكُنْه » لكثير من الأشياء من حوله ، فهو يعرف آثارها ، ولا يعرف حقيقتها ، وأبرز مثال لذلك هو : الحياة نفسها ، التى لا يعرفها إلا بآثارها .

بل عجز الإنسان أن يحيط علماً بحقيقة نفسه ، وكيف يعمل عقله ؟ حتى ألَّف أحد كبار علماء الكونيات - وهو حائز لجائزة نوبل فى العلوم - كتاباً سمَّاه « الإنسان ذلك المجهول » !

فإذا كان هذا شأن الإنسان مع نفسه ، فكيف يطمع أن يكتنه حقيقة الله الخالق المبدع ، وليس له مثال من الشاهد يمكن أن نقيسه عليه ، ولا يدخل تحت سلطان الخيال ، الذى يستطيع أن يركب صوراً يتوهمها ، وإن لم يكن لها وجود !

لهذا ذكر القرآن عجز الناس عن الإحاطة به جَلَّ وعلا . يقول تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (١) .

---

(١) طه : ١١٠

OBEIKAN.COM

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٢) .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣) .

بهذا أراح القرآن الإنسان المسلم من معاناة البحث عما لا طائل وراءه ، والتفكير فيما هو فوق طاقة عقله ، وسلَّم بذلك فسلم ، ووجَّه هذا الطاقة فيما هو أقرب إليه ، وأجدى بالنفع عليه ، ولم يركض خلف السراب يحسبه ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا !

أعلن ذلك رسول الإسلام ، فقال - فيما يُروى عنه - : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » ، أو « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله » (٤) .

وناجى - عليه الصلاة والسلام - ربه ، فقال : « لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » (٥) .

وروى عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه : « العجز عن درك الإدراك إدراك » .

ولقد حاول بعض مفكرى المسلمين ومتكلميهم أن يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أن يغرقوا ، فابتعدوا عنه ، وحذروا منه .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) سورة الإخلاص كاملة . (٣) الأنعام : ١٠٣

(٤) رواه باللَّفظ الأول أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس ، ورواه باللَّفظ الثانى أبو الشيخ والطبرانى فى « الأوسط » عن ابن عمر ، بأسانيد ضعيفة ، وحسَّنها الألبانى بمجموع طرقها فى « صحيح الجامع الصغير وزيادته » .

(٥) سيأتى تخريجه قريباً .

OBEIKAN.COM

يقول الإمام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ = ١٢١٠ م) صاحب التفسير الكبير والكتب الشهيرة فى« الأصولَيْن » : أُصول الدين وأُصول الفقه ، بعد أن حصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين .

العلم للرحمن جَلَّ جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم ؟ وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم !

وينشد الإمام الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) فى أول كتابه « نهاية الأقدام فى علم الكلام » .

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها وسرحت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن ، أو قارعاً سن نادم

وصرَّح بذلك الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) فى « الإحياء » وصنَّف فيه ، وجوَّد القول فيه فى كتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

ومن الصوفية اشتهر عن أبى القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) أنه كان يقول : لا يعرف الله إلا الله !

والمعتزلة - على خوضهم فى بحر الإلهيات - نجد منهم مثل العلَّامة ابن أبى الحديد (ت ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م) فى شرحه كتابه « نهج البلاغة » المنسوب للإمام علىّ رضى الله عنه ، يتعرض لهذه القضية فى مواطن من شرحه ، ويذكر فيه كلمات بليغة نثراً وشعراً مع توغله فى علم الكلام ، ومن شعره يخاطب الفلاسفة :

هل أنتمو إلا الفرا ش رأى السراج وقد توقد ؟

فدنا ، فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد !

وقال أيضاً يخاطب الذات الإلٰهية :

سافرت فيك العقولُ فما ربحت إلا عنا السفر

فلحا الله الألَى زعموا أنك المعلوم بالنظر

كذبوا ! إنَّ الذى زعموا خارج عن قوة البَشر [1]

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى الشهير بابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م) بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها : « ودع عنك هؤلاء كلهم ، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [2] . ولا أوضح من القرآن إذا أجير من التأويل بغير برهان » .

وكيف نتأوَّل ذلك ، وهذا رسول الله ﷺ وهو المبيِّن لكتاب الله يقول فى هذا المقام : « سبحانك لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » [3] .

هذا وهو أفصح وأعلم مَن ترجم عن ممادح ربه سبحانه ، وهو المؤتَى فى ذلك لجوامع الكلم وحسناها ، وأنفسها عند الله وأسناها ، وهو المخاطَب بقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [4] .

فاعترف عليه السلام بقصور عباراته عن بلوغ المرام فى هذا المقام ، فكيف بسائر الأنام ؟ [5] .

* * *

---

(١) ذكر هذه الأقوال كلها الإمام ابن الوزير فى كتابه الفريد « إيثار الحق على الخلق » ص ١٣٩ وما بعدها - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) طه : ١١٠

(٣) رواه مسلم فى « الصلاة » (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) وابن ماجه (٣٨٤١) من حديث عائشة : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أُحصى ثناءً عليك ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك » ، ولم أجد فى الأصول لفظ « سبحانك » وهى مشتهرة على الألسن .

(٤) النساء : ١١٣ (٥) إيثار الحق - المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤١

OBEIKAN.COM

مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلَّا الله

﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

● **علم السَّاعة** :

فأما « علم الساعة » فقد انفرد به الله سبحانه ، ولم يُطلع عليه مَلَكاً مقرَّباً ، ولا نبياً مرسلاً ، وقد وجَّه القرآن الرسول الكريم فى أكثر من آية أن يجيب السائلين عن الساعة بجواب محدد : ﴿ إنما علْمُهَا عندَ الله ﴾ (٢) ، و﴿ عندَ ربِّى ﴾ (٣) ، حتى يغلقوا أفواههم فلا يطمعوا فى معرفتها بكثرة السؤال عنها .

نقرأ فى ذلك قوله تعالى فى القرآن المكى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وفى القرآن المدنى :

﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (٥) .

وفى حديث جبريل المشهور ، سأل النبى ﷺ عن الساعة ، فكان جوابه : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » !

وكما أخفى الله ساعة كل حى عن نفسه ، فلا يعلم متى ينقضى أجله ،

---

(١) لقمان : ٣٤
(٢) الأعراف : ١٨٧ ، والأحزاب : ٦٣
(٣) الأعراف : ١٨٧ ، وطه : ٥٢
(٤) الأعراف : ١٨٧
(٥) الأحزاب : ٦٣

ويُطوى كتابه ، ليعد العدة للغد ، ويستعد للقاء ربه بعمل الصالحات ، واتقاء السيئات فى كل حين . . أخفى سبحانه ساعة الناس جميعاً عنهم ، فلا تأتيهم إلا بغتة ، حتى يتهيأوا لاستقبالها بما ينبغى لها من تقوى الخالق والإحسان إلى الخلق .

كل ما أخبر به الرسول عن الساعة هو أشراطها أو أماراتها وعلاماتها ، صغرى كانت أو كبرى .

وبعثة النبى ﷺ من أمارتها ، فهو آخر الأنبياء ، ليس بعده نبى ، ولا بعد قرآنه كتاب ، ولا بعد شريعته شريعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « بعثتُ أنا والساعة كهاتين » (١) وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى .

وإلى هذا يشير القرآن بقوله : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (٢) .

* *

● علم تنزيل الغيث :

وكذلك لا يعلم بدقة وتفصيل : متى ينزل الغيث ؟ وعلى أى مساحة من الأرض ينزل ؟ وكم يستمر نزوله ؟ وما مدى قوته ؟ وهل يتحول إلى سيل جارف وفيضان مدمر ؟

كل ذلك لا يعلمه إلا الله جَلَّ وعَلا . قد تستطيع الأرصاد الجوية أن تتوقع ما يحدث ، بناءً على ظواهر جوية طبيعية نشاهدها ، ونستنتج منها ما يمكن أن يحدث فى الغد ، ولكن هذا لا يعدو أن يكون توقعاً واستنتاجاً ، كثيراً ما يحدث خلافه تماماً ، وكثيراً ما فوجئ أهل الأرصاد بما لم يكن فى حسبانهم . وكثيراً ما توقعوا الأمر هيِّناً فإذا هو يباغتهم بالخطورة ، وقد يكون بالعكس . ويسميها بعضهم مفاجآت الطبيعة ، وربما قال : غدر الطبيعة .

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وأحمد فى مسنده عن أنس بن مالك ، ورواه الثلاثة عن سهل بن سعد ، كما فى الجامع الصغير للسيوطى برقم (٣١٤٦) .

(٢) محمد : ١٨

OBEIKAN.COM

والمؤمن يرد ذلك إلى مشيئة الله الذى يُجرى كل شىء فى الكون بقدر وحساب ، وليس شىء فيه يجرى اعتباطاً ، أو يمضى عبثاً . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١) .

* *

● علم ما فى الأرحام :

ومن مفاتح الغيب التى ذكرها الحديث : علم ما فى الأرحام . وقد ذكر بعض المفسِّرين ، أن المراد : أنه تعالى يعلم ما فى الرحم : أذكر أم أُنثى ؟ . واستغل ذلك بعض دعاة العلمانية اللادينية ، ليتخذوا من هذا القول ذريعة إلى اتهام علماء الدين وتفسير القرآن بأنهم جعلوا القرآن مناقضاً للعلم . فقد أصبح من الميسور اليوم معرفة جنس الجنين من وقت مبكر من الحمل ، ولم يعد هذا من علم الغيب الذى استأثر الله به .

وهذا التفسير لم يجئ عن النبى المعصوم حتى نلتزم به ، بل هو قول من الأقوال ، والآية الكريمة إنما ذكرت أن الله ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ ﴾ (٢) ، و« ما » فى الآية لفظ عام ، يشمل جنس الجنين ، ويشمل ما هو أكثر من ذلك وأوسع : هل يعيش الجنين حتى ينزل مكتملاً ؟ أو ينزل قبل اكتماله أو يُجهض ؟ وهل يكون ضعيفاً أو قوياً ؟ ذكياً أو غبياً ؟ جميلاً أو قبيحاً ، وما صورة وجهه ولون عينيه ، ونوع شعره ؟ . . . إلى آخر تلك الأسئلة ، التى لا يقدر على الإجابة عنها بدقة إلا الله تعالى .

وقد عرض القرآن لما فى الأرحام فى آية أخرى وسُورة أخرى فقال : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) المؤمنون : ١٨ (٢) لقمان : ٣٤ (٣) الرعد : ٨ ، ٩

OBEIKAN.COM

● وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً :

ومن مفاتح الغيب التى لا يعلمهن إلا الله : ماذا يصنع الإنسان غداً ، وماذا تكسب يداه ، وليس هذا مقصوراً على كسب الرزق كما قد يُتوهم ، وإن كان داخلاً فى الكسب ، ولكن الكسب يشمل كل ما عملت يد الإنسان من خير أو شر يُجزَى عليه فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ (٢) .

والناس من قديم يعترفون بأنهم يجهلون ما يأتى به الغد ، يقول المثقب العبدى فى قصيدته النونية الشهيرة :

ولا أدرى إذا يممتُ أرضاً أريد الخير أيهمـــا يلينى ؟

ءالخـير الذى أنا أبتغـــيه أم الشر الذى هو يبتغينى ؟

قد يخطط الإنسان لما يصنعه فى غده ويرتب الأمر ترتيباً دقيقاً ، ويضع فيه كل شىء موضعه المناسب له ، وربما كتب ذلك وكلَّف به من ينفذه ، ولكن كثيراً ما تجدّ أحداث تقلب الأُمور رأساً على عقب ، فيتوقف السائر ، ويسكن المتحرك ، ويسكت المتكلم ، ويمرض الصحيح ، بل يموت الحى ، دون إنذار ولا إعلام ، بحادث مفاجئ ، أو بسكتة قلبية ، أو ذبحة صدرية ، أو غير ذلك مما هو معروف غير منكور لدى الناس . وهذا ما جعل الناس يقولون فى أمثالهم : « العبد فى تفكير ، والرب فى تدبير » !

* *

● وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت :

ومن مفاتح الغيب : العلم بمكان الموت ، ومثله : العلم بزمان الموت ، فلا يعلم الإنسان بأى أرض يموت ، ولا فى أى وقت يموت . كل ما يعلمه أن له

---

(١) المدثر : ٣٨ (٢) الأنعام : ١٦٤

OBEIKAN.COM

أجلاً مسمًّى عند الله ، وأنه إذا جاء أجله لا يؤخَّر ساعة ، كما لا يُستقدم : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (١) .

وكم من امرئ عاش عمره فى بلد ، ثم قدَّر الله له أن يموت فى بلد آخر ، جعل الله له حاجة فيها ، تكون هى الدافع لانتقاله ، ليموت حيث قدَّر الله له .

يقول الشاعر :

مشـــــيناها خُطاً كُتبت علينا ومَن كتُبت عليه خطاً مشاها !

وَمَن كـــانت مَنِـــــيَّته بأرض فليس يموت فى أرض سواها !

* *

● علم ما قبل التاريخ :

وإذا كان علم المستقبل بتفاصيله لا يعلمه على وجه القطع إلا الله ، فإن علم الماضى السحيق - علم القرون الأولى قبل التاريخ - مما لم يقم عندنا دليل صحيح عليه ، لا من أثر يشهد ، ولا من خبر يروى ، هو من هذا الوادى الذى نكل العلم فيه إلى الله ، ولا نقفو ما ليس لنا به علم ، ولا نقحم أنفسنا فيما لا تسعفنا وسائلنا وآلياتنا المختلفة فى كشف اللثام عنه .

وهنا لا يسعنا إلا ما وسع كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ، فى المحاورة التى تمت بينه وبين فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ، لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ (٢) .

أما إذا خلف القوم وراءهم من المعالم والآثار المشهودات ، أو من الخطوط والجلود والأوراق المكتوبات : ما يمكن استنطاقه بما كان عليه القوم ، فينبغى

---

(١) المنافقون : ١١ (٢) طه : ٤٩ - ٥٢

OBEIKAN.COM

الاستفادة منه بلا ريب ، استجابة لقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وقد يدخل فى ذلك السير فى الأرض للنظر فى قضية بدء الحياة وكيف كان . وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

* *

● علم حقيقة الروح :

ومما قد يدخل فى هذه الدائرة : علم حقيقة الروح التى بها يحيا الإنسان والحيوان .

وفى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

على أن المراد بـ « الروح » فى الآية الكريمة هو روح الإنسان . وهو الراجح لدى المفسِّرين .

وإن كان هناك أقوال أُخرى : أن المراد هو « جبريل » بوصفه « الروح الأمين » .

وقيل : المراد بالروح : القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) العنكبوت : ٢٠
(٣) الإسراء : ٨٥ (٤) الشورى : ٥٢

OBEIKAN.COM

الفقه فى لسان القرآن

وكما دعا القرآن إلى العلم ، دعا إلى الفقه أيضاً ، فى سوره المكية والمدنية .

والفقه القرآنى ليس هو الفقه بالمعنى الاصطلاحى ، فهذا مما بدَّله الناس من مصطلحات العلوم وأسمائها ، كما بيَّن ذلك الغزالى فى « الإحياء » .

الفقه الاصطلاحى يُراد به : معرفة الأحكام الشرعية الفرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية ، مثل أحكام الطهارة والحيض والنفاس والصلاة والصيام والرضاع والزواج والطلاق . . . ونحوها ، مما يدخل تحت ما عرفه المسلمون باسم « علم الفقه » .

أما الفقه القرآنى فلا يتعلق بذلك ، إنما يتعلق بالفهم لآيات الله فى الآفاق والأنفس ، والتأمل فى سنن الله فى الكون والاجتماع ، فى وضوء شواهد التاريخ ، ودلائل الواقع ، ومعرفة أسرار الله فى خلقه ، ومقاصده فى شرعه .

● الفقه فى القرآن المكى :

ولهذا جاءت هذه الكلمة فى القرآن المكى قبل أن تُشرع الأحكام ، وتُحد الحدود ، وتنزل التفصيلات فى السور المدنية .

يقول تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

وفى نفس السورة نجد القرآن يذكر ألواناً من العذاب يهدد بها المشركين الظالمين ، فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً

---

(١) الأنعام : ٩٨

OBEIKAN.COM

مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، ثم يقول تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) . . فهذا فقه فى سنن الله وعقوباته للأُمم إذا كذَّبت رُسُله ، واستحبوا العمى على الهدى .

وقد نجد القرآن الكريم فى السياق الواحد يذكر العلم ، ويذكر الفقه ، مفرقا بينهما . فللعلم موضعه ، وللفقه موضعه . وقد تكرر ذلك فى أكثر من موضع .

من ذلك : ما جاء فى هذه السورة - سورة الأنعام - فى آيتين متتاليتين . وهما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

لماذا فرَّق بينهما فى التعبير ؟ هنا نقرأ لصاحب « الظلال » رحمه الله هذه الكلمات المنيرة :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . .

« فالاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . . فالاهتداء - كما قلنا - هو الاهتداء فى الظلمات الحسِّية الواقعية ، وفى ظلمات العقل والضمير . . والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسِّى ، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى ؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم . .

---

(١) الأنعام : ٦٥ (٢) الأنعام : ٩٧ ، ٩٨

OBEIKAN.COM

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« إنها اللَّمسة المباشرة فى هذه المرة . . اللَّمسة فى ذات النفس البَشرية . النفس البَشرية الواحدة الموحدة الكنه والحقيقة فى الذكر والأُنثى . تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفسٌ هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفسٌ هى مستقر لها فى رحم الأُنثى . . ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ، وإذا شيات ولغات ، وإذا شعوب وقبائل ، وإذا النماذج التى لا تُحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« فالفقه هنا ضرورى لإدراك صنع الله فى هذه النفس الواحدة ، التى تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث - فى عالَم الإنسان - لتتم عملية التزاوج التى قدَّر الله أن تكون هى وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال فى ظروف تحفظ « إنسانيتهم » ، وتجعلهم أكفاء للحياة « الإنسانية » !

« ولا نملك هنا - فى الظلال - أن نبعد فى عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات - فهى فى حاجة إلى بحث متخصص - ولكننا نذكر فقط كيفية نشأة النطفة ، ذكراً أو أُنثىٰ ، وكيف يتم عن طريق التوزيع الغيبى الربَّانى إنتاج القدر الكافى من الذكور ومن الإناث دائماً لكى تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها . .

« ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (١) . . أن الذى يقرر صيرورة البويضة الملقحة ذكراً أو أُنثى ، هو أن يجرى قدر الله بأن يكون عدد « كروموسومات » الحيوان المنوى الذى

---

(١) الأنعام : ٥٩

يلتحم بالبويضة يرجح « كروموسومات » التذكير على « كروموسومات » التأنيث أو العكس ، وأن جريان القدر بهذا أو ذاك غيب من غيب الله . لا سلطان لأحد عليه إلا الله . .

« هذا القدَر الذى يجريه الله فى كل مرة ، فيهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، يحافظ على توازن دائم فى الأرض كلها بين عدد مَن يجرى بهم ليكونوا إناثاً ، وعدد مَن يجرى بهم ليكونوا ذكوراً . فلا يقع اختلال - على مستوى البَشرية كلها - فى هذا التوازن . الذى عن طريقه يتم الإخصاب والإكثار ، وتتم به حياة زوجية مستقرة فى الوقت ذاته . . ذلك أن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور . . ولكن الله قدَّر فى الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأُنثى ؛ إنما الغاية - التى تميز الإنسان من الحيوان - هى استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأُنثى . . لما وراء هذا الاستقرار من أهداف لا تتم إلا به . وأهمها استقرار الذُرِّية فى كنف أبوين فى محيط أُسرة ، ليتم إعداد هذه الذُرِّية لدورها « الإنسانى » الخاص - فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحيوان - والدور « الإنسانى » الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين فى أُسرة فترة أطول جداً مما تحتاج إليه طفولة الحيوان !

« وهذه الموازنة الدائمة تكفى وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . . ولكن لقوم يفقهون : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« أما المطموسون المحجوبون . . وفى أولهم أصحاب « العلمية » الذين يسخرون من « الغيبية » . فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ (١) ، (٢) .

* *

---

(١) الأعراف : ١٤٦

(٢) انظر : فى ظلال القرآن : ٧/١١٥٩ ، ١١٦٠ - طبع دار الشروق .

● **نفى الفقه عن الكفار والمنافقين :**

ولا غرو أن نفى الله تعالى هذا الفقه عن الكفار وعن المنافقين .

فيقول عن الكفار : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (١) .

ويقول مخاطباً المؤمنين : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

فهكذا يعلل غلبة المسلمين عليهم بأنهم ينقصهم الفقه : ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ويقول فى شأن اليهود : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

ويقول فى شأن المنافقين : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ، لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) .

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ ، صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦) .

قال فى « تفسير المنار » فى قوله : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ : « جملة تحتمل الدعاء والخبر ، ومضمونهما فى كلام الله واحد ، والمعنى : صرف الله قلوبهم عن صدق الإيمان ، والاهتداء بآيات الله فى القرآن ، المرشدة إلى آياته فى الأكوان : ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أى بسبب أنهم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية ،

---

(١) الأعراف : ١٧٩ (٢) الأنفال : ٦٥ (٣) الحشر : ١٣

(٤) التوبة : ٨١ (٥) التوبة : ٨٧ (٦) التوبة : ١٢٧

OBEIKAN.COM

وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، لعدم استعمال عقولهم فيها ، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات ، لعدم تدبرها ، والإعراض عن النظر والتأمل فى معانيها ، وموافقتها للعقل ، وهدايتها إلى الحق والعدل ، ذلك بأنهم اتخذوا أنفسهم أعداءً وخصوماً للرسول ، فوطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به ، من غير بحث ولا تأمل فيه : أمعقول أم غير معقول ؟ أحق أم باطل ؟ أخير أم شر ؟ أهُدىً أم ضلال ؟ أنافع أم ضار ؟ فأنَّى يُرجى لهم - وهذه حالهم - أن يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور » (١) .

وفى السورة التى سميت « سورة المنافقين » وصفهم الله فى آيتين بأنهم ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

الأُولى : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

والثانية قوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ، وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

وبذلك نجد أن نصيب المنافقين من الحرمان من الفقه أكثر من غيرهم ، وذلك لما فى قلوبهم من المرض ، الذين يحول بينهم وبين هذا الفقه ، سواء أكان مرض الشبهات أم مرض الشهوات .

* *

● كلمات من « ظلال القرآن » :

ويحسن بنا أن ننقل هنا هذه الكلمات المضيئة عن صاحب « الظلال »

---

(١) تفسير المنار : ١١/ ٨٥ - طبعة ثانية .

(٢) المنافقون : ٣ (٣) المنافقون : ٧

رحمه الله تعليقاً على الآية الكريمة : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ (١) :

« وهى قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسَّة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسِّهم ، فيحاربون بها المؤمنين .

« إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشِعْب ، لينفضُّوا عن نُصرة رسول الله ﷺ ويُسلموه للمشركين !

« وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ، لينفضّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

« وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

« وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق . .

« وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية : ﴿ وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) . .

« ومن خزائن الله فى السموات والأرض يرتزق هؤلاء ، الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم ، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

« وهكذا يُثبِّت الله المؤمنين ويُقوِّى قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة

---

(١) المنافقون : ٧

(٢) المنافقون : ٧

OBEIKAN.COM

والوسيلة الخسيسة ، التى يلجأ أعداء الله إليها فى حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله فى السموات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع . والذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيراً ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق ؟ وهو أكرم أن يكل عباده - ولو كانوا أعداءه - إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء » ! [1] .

* * *

(١) فى ظلال القرآن : ٢٨/ ٣٥٧٩ - طبع دار الشروق .

OBEIKAN.COM

الحكمة فى لسان القرآن

ومن الكلمات القرآنية التى لها صلة بموضوع العلم والعقل : كلمة « الحكمة » ، وقد تكررت فى كتاب الله - مُعرَّفة ومُنكَّرة - عشرين مرة ، عشر منها مقرونة بالكتاب ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

ولكن ما المراد بـ « الحكمة » ؟

قال الراغب فى « مفردات ألفاظ القرآن » : « الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . فالحكمة من الله تعالى : معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام ، ومن الإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات ، وهذا هو الذى وُصِفَ به لقمان فى قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ (١) ، ونبَّه على جملتها بما وصفه بها » (٢) .

● **الحكمة نظرية وعملية :**

وقال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير : « اعلم أن الحكمة هى : الإصابة فى القول والعمل ، ولا يسمى حكيماً إلا مَن اجتمع له الأمران . وقيل : أصلها من أحكمت الشىء ، أى رددته ، فكأن الحكمة هى التى ترد عن الجهل والخطأ . وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة فى القول والفعل ، ووضع كل شىء موضعه . قال القفَّال : وعبَّر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البَشرية (٣) .

وعبَّر بعضهم عن ذلك بعبارة : « التخلق بأخلاق الله تعالى » والمراد : أن

---

(١) لقمان : ١٢ (٢) مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٤٩

(٣) تفسير الرازى : ٤/ ٧٤

OBEIKAN.COM

يكون له حظ من أسمائه وصفاته تعالى بما يليق ببَشريته ، وبقدر وسعه وطاقته .

قال الفخر : « واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين (العلمى والعملى) وذلك لأن كمال الإنسان فى شيئين : أن يعرف الحق لذاته (أى ليؤمن به) و(يعرف) الخير لأجل العمل به . فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق ، وبالثانى إلى فعل العدل والصواب ، فحكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ؛ الحكمة العملية . ونادى موسى عليه السلام فقال : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿ فَاعْبُدْنِى ﴾ (٢) ؛ وهو الحكمة العملية . وقال عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ (٣) ... إلخ ؛ وكل ذلك للحكمة النظرية . ثم قال : ﴿ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ (٤) ؛ وهو الحكمة العملية . وقال فى حق محمد ﷺ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية . ثم قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ... ﴾ (٥) ؛ وهو الحكمة العملية . وقال فى جميع الأنبياء : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ (٦) ؛ وهو الحكمة العملية » (٧) .

وقال تعالى فى بيان فضل الحكمة وأهميتها : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٨) .

---

(١) الشعراء : ٨٣ (٢) طه : ١٤ (٣) مريم : ٣٠
(٤) مريم : ٣١ (٥) محمد : ١٩ (٦) النحل : ٢
(٧) تفسير الرازى : ٧/ ٧٢ ، ٧٣ (٨) البقرة : ٢٦٩

OBEIKAN.COM

وإذا كان الله تعالى قد اعتبر الدنيا كلها « متاعاً قليلاً » ، فما تكون قيمة هذا الخير الذى وصفه الله بأنه كثير ، وهو من ثمرات الحكمة .

وذلك أنه بهذه الحكمة يميز بين الإلهام الربَّانى ، والوسواس الشيطانى ، فقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● مهمة النبى تعليم الكتاب والحكمة :

وقد جعل القرآن من شُعَب مهمة النبى ﷺ فى الأُمة : « تعليم الكتاب والحكمة » ، وذلك فى أربع آيات من كتاب الله تعالى :

أُولاها : كانت فى دعاء إبراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت العتيق . فكان منه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

والثانية : فى نفس السورة فى معرض الامتنان برسالة الرسول الكريم حيث قال : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

والثالثة : فى سورة آل عمران فى معرض الامتنان على المؤمنين بالبعثة المحمدية : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٦٨
(٢) البقرة : ١٢٩
(٣) البقرة : ١٥١
(٤) آل عمران : ١٦٤

والرابعة : فى سورة الجمعة فى مقام الامتنان على الأُميين من العرب ببعثة الرسول إليهم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وقد اختلف مفسِّرو السَّلَف فى معنى الحكمة فى هذه الآيات .

فروى ابن جرير عن ابن وهب قال : قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين ، والفقه فى الدين ، والاتباع له .

وروى ابن جرير عن قتادة أن الحكمة هى السُّنَّة .

ويبدو أن ذلك باعتبار السُّنَّة بيان القرآن النظرى ، وتطبيقه العملى .

وروى عن ابن وهب أيضاً قال : قال ابن زيد فى قوله : ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ : الحكمة : الدين الذى لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم ، يعلمهم إياها . قال : والحكمة : العقل فى الدين . وقرأ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٢) ، وقال عن عيسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٣) . قال : وقرأ ابن زيد : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ (٤) ، قال : لم ينتفع بالآيات ، حيث لم تكن معها حكمة ، والحكمة شىء يجعله الله فى القلب ، ينور له به (٥) .

وقال الرازى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ : أى يعلمهم ما فيه من الأحكام . ﴿ والْحِكْمَةَ ﴾ : أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع ، وما فيها من وجوه المصالح والمنافع (٦) .

* *

---

(١) الجمعة : ٢ (٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) آل عمران : ٤٨ (٤) الأعراف : ١٧٥

(٥) انظر : تفسير ابن جرير الطبرى : ٣/٨٦ ، ٨٧ - طبعة دار المعارف بتحقيق محمود وأحمد محمد شاكر .

(٦) تفسير الرازى : ٤/٧١

OBEIKAN.COM

● **الحكمة فى « تفسير المنار » :**

وقال فى تفسير المنار فى معنى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) : أى الكتاب الإلهى ، أو الكتابة التى يخرجون بها من ظلمة الأُمية والجهل إلى نور العلم والحضارة ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، على القول الصحيح باستعمال المشترك فى معنييه ، أو فيما يقتضيه المقام من معانيه .

وأما الحكمة فهى العلم المقترن بأسرار الأحكام ، ومنافعها ، الباعث على العمل بها .

قال : وفسَّرها بعضهم بالسُّنَّة ، وهو غلط ، فإنها (أى الحكمة) أُطلقت على بعض نصوص الكتاب كالعقائد والفضائل والأحكام الإيجابية والسلبية ، بدليل قوله تعالى بعد الوصايا المقرونة بعلل الأمر والنهى من سورة الإسراء : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (٢) ، وفى سورة لقمان أن الله آتاه الحكمة ، وذكر منها وصاياه لابنه المعلَّلة بأسباب النهى ، فحكمة القرآن أعلى الحكم ، وتليها حكمة الرسول ﷺ .

وفى الحديث : « لا حسد إلّا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويُعلِّمها » (٣) ، وفى بعض رواياته : « فهو يعمل بها ويُعلِّمها للناس » (٤) .

* *

● **المراد بـ « الكتاب والحكمة » :**

ولا بد من تفسير ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تفسيراً يصلح المعنى فيه لكل المواقع التى وردت الكلمتان فيها .

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) الإسراء : ٣٩

(٣) رواه الشيخان من حديث ابن مسعود . (٤) تفسير المنار : ٢/٢٩ - الطبعة الثالثة .

OBEIKAN.COM

فقد وصف الله بإيتائهما آل إبراهيم : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آل إبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ ﴾ (١) ، ولا يمكن أن يكون المراد هنا : السُّنَّة . إذ المقصود بالسُّنَّة : سُنَّةَ محمد ﷺ .

وقال تعالى فى مقام تبشير مريم بابنها عيسى عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ ﴾ (٢) .

وفى مقام امتنانه على عيسى : ﴿ إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ ﴾ (٣) .

ولا يمكن أن تُفسَّر الحكمة هنا أيضاً بالسُّنَّة .

كما لا يمكن تفسير الكتاب بالتوراة أو الإنجيل ، لأنها مذكوران فى نفس النص .

فالمراد بالكتاب إذن : إما مصدر « كتب » أى الكتابة بالخط ، وهو الذى يُخرج الإنسان من الأُمية ، ولهذا لم يمنّ بذلك على محمد ﷺ ، ولكن على أُمَّته : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٤) ، لأن الأُمية فيه دلالة على الإعجاز الإلٰهى : أن يصدر من هذا الأُمِّى أعظم كتاب عرفه الوجود ، فى مضمونه وفى نظمه وفى بيانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٥) .

أو المراد بـ « الكتاب » : جنس الكتب الإلهية . . ثم عطف عليه التوراة والإنجيل من باب عطف الخاص على العام ، لأهميتهما وخصوصيتهما .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن

---

(١) النساء : ٥٤ (٢) آل عمران : ٤٨ (٣) المائدة : ١١٠

(٤) البقرة : ١٢٩ (٥) العنكبوت : ٤٨

OBEIKAN.COM

كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ (١) . . . الآية

فكلمة « كتاب » هنا : لا تعنى كتاباً معيَّناً ، وإنما جنس ما أنزل الله من كتب السماء .

والحكمة - فى هذه المواضع كلها - يراد بها : حسن الفهم للكتب والتفقه فى أحكامها ، بحيث يعرف مقاصدها وأسرارها ، ولا يقف عند ظواهرها ، ويعرف ما وراء أحكامها وتوجيهاتها من المنافع والمصالح الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، وسعادة الفرد والمجتمع ، فى مادياتهما ومعنوياتهما . . بحيث يدفع هذا الفقه المنشود إلى حُسْن العمل بها ، ووضعها فى موضعها الملائم .

وهذه الحكمة هبة أو نعمة من الله يؤتيها لمن يشاء من عباده ، كما قال تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢) .

وقد يُعبِّر عن هذا الإيتاء الإلهى بالإنزال ، كما فى قوله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (٣) . فليس المقصود بالإنزال هنا : أن الله أنزل بها جبريل عليه السلام كالقرآن . بل ألهم الله بها رسوله ، ومَنَّ عليه بها .

وقال فى تفسير المنار : « الحكمة : العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة : إلى العمل النافع ، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم ، لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل » (٤) .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ قال فى المنار : « فسَّر الأستاذ الإمام « الحكمة » - هنا - بالعلم الصحيح يكون صفة محكمة فى

---

(١) آل عمران : ٨١ (٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) النساء : ١١٣ (٤) تفسير المنار : ٣/ ٣١٠

OBEIKAN.COM

النفس ، حاكمة على الإرادة ، توجهها إلى العمل . ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح ، كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة . وكم من محصل لصور كثير من المعلومات ، خازن لها فى دماغه ، ليعرضها فى أوقات معلومة ، لا تفيده هذه الصور التى تسمى علماً ، فى التمييز بين الحقائق والأوهام ، ولا فى التزييل بين الوسوسة والإلهام ؛ لأنها لم تتمكن من النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة ، وإنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل ، وتحضر عند المراء والجدل ، قال الأستاذ الإمام ما معناه : والمراد بإيتائه الحكمة من يشاء : إعطاؤه آلتها - العقل - كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة فى تحصيل العلوم الصحيحة . فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات ، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات ، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام ، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام » .

قال السيد رشيد : « وهذا القول يتفق مع ما روى عن ابن عباس من أن « الحكمة هى الفقه فى القرآن » ؛ أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها ؛ لأن هذا الفقه هو أجَلّ الحقائق المؤثرة فى النفس ، الماحية لما يعرض لها من الوساوس ، حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح . . . .

ولكن الفقه فى القرآن ، لا يكون إلا بكمال العقل ، وحُسْن استعماله فى الفهم ، والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها . فالحَبْر (يعنى ابن عباس) فسَّر الحكمة بالأخص ، رعاية للمقام ، والأستاذ الإمام فسّرها بالأعم ، بياناً لشمول هداية القرآن . فالآية بإطلاقها رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها ، هادية إلى استعمال العقل فى أشرف ما خُلِق له ، ومَن رزئ بالتقليد كان محروماً من ثمرة العقل وهى الحكمة ، ومحروماً من الخير الكثير الذى أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) ، فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن

---

(١) البقرة : ٢٦٩

وجهالة شياطين الإنس ، يتوهم أنه قد يستغنى بعقول الناس عن عقله ، وبفقه الناس عن فقه القرآن » (١) .

* *

● **الدعوة بالحكمة :**

وقد أمر الله تعالى بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .

وأظهر ما تكون الحكمة فى مخاطبة العقول لتقتنع وتستنير ، وأظهر ما تكون الموعظة فى مخاطبة القلوب لتتأثر وتتحرك ، والداعية الموفق هو الذى يخاطب العقل والقلب معاً ، وهذا هو نهج القرآن ، ونهج الرسول عليه الصلاة والسلام .

والأنبياء والرُّسُل جميعاً كانوا دعاة إلى الله بالحكمة ، لا بالحماقة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالكلمة الخشنة ، ومن ثَمَّ وصفهم الله بأنهم آتاهم الحكمة فى كثير من آيات كتابه .

كما قال عن آل إبراهيم : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٣) .

وقال عن داود : ﴿ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير المنار : ٣/ ٧٥ ، ٧٦ - الطبعة الثالثة .

(٢) النحل : ١٢٥ (٣) النساء : ٥٤

(٤) البقرة : ٢٥١ (٥) سورة ص : ٢٠

وقال عن عيسى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ (١) .

وقد يُعبِّر القرآن عن « الحكمة » بـ « الحكم » فكلمة الحكم تعنى : الفصل والقضاء ، كما تعنى : الحكمة أيضاً .

ولقد لاحظنا أن القرآن الكريم تحدَّث عن عدد من الرُّسُل بأن الله آتاهم حكماً وعلماً .

قال ذلك عن لوط ويوسف وموسى وداود وسليمان .

وقد يفرد الحكم وحده كما قال عن إبراهيم أنه دعا ربه فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

وقال عن موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُم لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

وقال عن يحيى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ (٤) .

وقال عن ثمانية عشر رسولاً ذكرهم فى سورة الأنعام : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) الزخرف : ٦٣ (٢) الشعراء : ٨٣ (٣) الشعراء : ٢١

(٤) مريم : ١٢ (٥) الأنعام : ٨٩

OBEIKAN.COM